كان ذلك فى بكرة الصباح

و « فلاديمير كلاديتوف » فتى وسيم ، مديد القامة ، فى الثانية والعشرين من عمره ، كالغلمان مظهراً ، له وجه مليح وشعر وحف أشقر ، يرتدى حلة الضباط ، وينتعل نعال الركوب الطويلة ؛ وكان واقفاً فى مرج ممشوشب كساه متساقط الجليد ، وهو شاخص الى ضابط آخر ، وذلك الآخر رجل أسبل الشاربين ، بائن الطول ، محمر الوجه ، وكان مواجهاً له على مسافة ثلاثين قدماً وهو يرفع على مهل يده حاملة فى قبضتها مسدساً يسدده الى فلاديمير

وكان فلاديمير واضعاً ذراعيه متشابكين على صدره ، حاملاً كذلك فى إحدى كفيه مسدساً ، وهو ينتظر — انتظار من لا يبالى — طلقة النار يطلقها عليه خصمه . وكان وجهه الناضر الصبيح وإن غشيته مسحة من شحوب تتوقد الشجاعة فيه ويعلوه ابتسام المستخف . وكان موقفه الخطر ، وما يبدو على غريمه من تصميم مبرم لا رحمة فيه ، وشدة الانتباه من جانب الشهود الواقفين صفاً واحداً بلا حس ولا حراك ، كل هذه مجتمعة جعلتها لحظة بالغة الهول ، غامضة الكنه ، رهيبة الوقع . إنها مسألة شرف يجب هنا القضاء فيها .

وكان الجميع شاعرين بجلالها . وعلى قدر بعدهم عن إدراك ما هم صانعون كانت اللحظة تزداد رهبة على رهبة

وانطلقت رصاصة . وسرت فى فرائص الجميع رعدة . وأرخى فلاديمير ذراعيه ، وثنى ركبتيه ، وخر فى مكانه . وهو على الثلج لقىً ، وقد نفذت الرصاصة فى رأسه ، منطرح ، وذراعاه متباعدتان ، وشعره ووجهه ومتوسد الثلج تحت رأسه ، كأنها مضرجة بالدم . وهرول إليه الشهود فاحتملوه . وفحصه الطبيب فقرر وفاته . وانحلت مشكلة الشرف وانفض أمرها . ولم يبق إلا إبلاغ الخبر الى الفرقة التى ينتمى الضابط ، وإبلاغ النعى بقدر ما يمكن من التلطف والتحرز الى الأم التى أصبحت من بعده وحيدة فى الدنيا . فان الفتى القتيل وحيدها . وهى لم تخطر قبل المبارزة فى بال أحد . أما الآن فالكل يفكرون ويطيلون التفكير . فالكل يعرفونها ويحبونها ويدركون أنه لا بد من التقديم لهذا النبأ الفظيع عندها والتمهيد قبل إلقائه والتدرج فى مساقه . وفى النهاية وقع الاختيار على « إيفان جوليوبتكو » بوصف أنه أصلحهم جميعاً

لتبليغ الخبر للأم وتهوين الخطب جهد المستطاع

* * *

كانت « بلاجيا بتروفنا » قد استيقظت ساعتئذ من نومها . وكانت تجهز لنفسها شاى الصباح ، حين دخل الى غرفتها « إيفان جوليوبنكو » مكتئباً مرتبكا

وهبت السيدة العجوز لملاقاة ضيفها قائلة : « لقد جئت فى الأوان والشاى مجهز يا إيفان ! » ثم أردفت : « إنك قادم لا محالة لترى فلاديمير ! »

فغمغم « جوليوبنكو » مجفلاً : « لا ... إنما كنت ماراً ... »

— أنت لا بد عاذره ، إنه لا يزال ناعماً لقد قضى سحابة الليلة الماضية يذرع غرفته جيئة وذهابا . وقد أوصيت الخادمة ألا توقظه ، فان اليوم عطلة بمناسبة العيد . ولكن لعلك آت فى مهمة مستعجلة ؟

— كلا ، وإنما عرجت عليكم فى مرورى لحظة ...

— إن شئت رؤيته أمرت بإيقاظه

— كلا ، كلا لا تكلفى نفسك

ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت معتقدة أنه قادم ليرى ابنها فى أمر من الأمور . فخرجت وهى تتمتم بينها وبين نفسها

وجعل « جوليو بنكو » يذهب ويجىء مضطرباً ، ويقلب كفيه ، وهو لا يدرى كيف يبلغها الخبر الفظيع . لقد أزفت اللحظة الحاسمة ، ولكنه لم يعد مالكا لنفسه بل ملكه الروع فهو يلعن الحظ الذى ورّطه شر مورّط فى الأمر كله

واستهلت « بيلاجيا بتروفنا » وهى تدخل الغرفة مخاطبة زائرها سليمة السريرة طيبة النحيزة :

— وبعد ! فكيف لامرئ أن يثق فيكم أيها الشبان ؟ هأنذا أحاذر أن أحدث أدنى حس للأقداح وأطباقها ، واستسمحك فى عدم إيقاظ إبنى ، فاذا هو قد مضى منذ برهة طويلة ولم يخلف أثراً ! ولكن ، لم لا تجلس وتشرب قدحاً من الشاى ؟ لقد أهملتناشر الاهمال فى هذه الأيام الأخيرة

وابتسمت كأنما تبتسم عن سرور مخامر ، وزادت بصوت خافت :

— كانت الأخبار كثيرة عندنا فى تلك الآونة ، وما أحسب أن فلاديمير استطاع كتمانها . ولا بد أنه أفضى بها اليك كافة بحذافيرها ليومنا هذا . إن ابنى فلاديمير مستقيم الطبع مفتوح القلب . والليلة البارحة دارت بخلدى الظنون مع مابها من إثم ! إذا كان فلاديمير إبنى يذرع الغرفة طيلة ليلته فمعناه أنه يفكر فى « لينوتشكا » صباً بها ، مشوقا اليها . وإن من مألوف عادته وديدنه إذا ذرع الغرفة الليل طوله أن يمضى لا محالة فى الغداة . آه يا إيفان لا أتمنى شيئاً على الله إلا أن يرزقنى من لدنه هذه الفرحة يقر بها عينى فى هرمى . وما ذا تطلبه امرأة عجوز أكثر من هـــذا ؟ وليس لى غيرها أمنية وبشرى ؛ وإنه ليخيل الىّ أن ليس ثمة سؤال أرتجيه بعد إذ يتزوج فلاديمير ولينوتشكا . إن فى ذلك لغبطة لى وأيما غبطة ، وسعادة مابعدها سعادة . ومالى سوى فلاديمير من حاجة . وليس شىء أحب الىّ من هناءته

وكان من شدة تأثر السيدة العجوز أن جعلت تكفكف الدمع قد اغرورقت به عيناها

واسترسلت تتحدث إليه : « أو تذكر ؟

لم تكن الأمور فى البداية جارية على أحسن حال ، سواء فيما بينهما أو فيما يتعلق بالمال . فأنتم معشر الشبان الضباط غير مسموح لكم حتى الزواج من غير مال مرصود . حسن ، لقد تم الآن إعداد كل شىء : حصلت على الخمسة الآلاف روبية اللازمة لفلاديمير . وفى الامكان ذهابهما الى المحراب لعقد الزواج غداة غد . أجل ، وقد كتبت لى ليونتشكا خطاباً ما ألطفه . إن قلبى جذلان مبتهج

وأخرجت « بيلاجيا بتروفنا » — وهى مسترسلة فى كلامها — خطاباً من جيبها ، وأظهرته لجوليو بنكو ثم أعادته : « انها لفتاة محببة ! وناهيك من طيبة نفسها !

وجلس إيفان جوليو بنكو ينصت إلى كلامها وهو على مثل الجمر . وقد أراد أن يقطع عليها هذا الفيض من الأحاديث ، ويقول لها إن كل شىء قد انتهى ، وأن فلاديمير ابنها مات وأصبح فى خبر كان ، وأنه بعد ساعة واحدة لن يبقى لها شىء من هذه الآمال الزاهية . ولكنه أنصت إليها والتزم الصمت ، ونظر الى وجهها الطيب اللطيف فأخذ منه الاشفاق عليها وإذا حركة تشنج تأخذ بكظمه

وأخيراً سألته السيدة العجوز : « ولكن ، مالى أراك اليوم متجهما ؟ ما بالك ، إن وجهك يبدو مكفهرا كامداً كالليل !

وود إيفان لو يقول : « نعم ! وسيكون وجهك كذلك حين أخبرك الخبر ! » ولكنه لم يبلغها شيئاً ، واستعاض من ذلك بأن أشاح بوجهه وجعل يفتل شاربيه

ولم تلحظ بيلاجيا بتروفنا شيئاً ، واستطردت وهى فى أفكارها مستغرقة :

« إن لك عندى تحية ، لقد كتبت ليونتشكا فيما كتبته لى توصينى بأن أبلغ تحياتها إلى إيفان ، وأن أرجوه المجىء مع فلاديمير لزيارتها ؛ فأنت ترى بنفسك يا إيفان مودتها لك ! لا وايم الله ، يظهر أننى لا أستطيع الاستئثار بهذا وحدى . لابد من إطلاعك على الخطاب ، ولتنظرن أنت لنفسك مبلغ ما فيه من محبة وعذوبة

وعاودت بيلاجيا بتروفنا البحث عن حزمة الخطابات فى جيبها وسحبت منها طرساً رقيق الورق مقرمط الكتابة ، ونشرته أمام إيفان جوليو بنك وقد زاد وجهه اكفهراراً ، وحاول إيفان أن يدفع عنه القرطاس الممدود ، ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد أنشأت تقرؤه :

(عزيزتى بيلاجيا بتروفنا — متى يئين الأوان الذى أخاطبك فيه بغير هذا فأدعوك بيا أمى العزيزة المحببة ! إننى أرقب ذلك اليوم متلهفة ، وإن أملى لعظيم بقرب حلوله حتى لست أحب دعوتك من الآن باسم غير يا أمى —)

ورفعت بيلاجيا بتروفنا رأسها ، وتوقفت عن التلاوة ، ونظرت إلى جوليو بنكا بعينين تملؤهما العبرات

وقالت : « أترى يا إيفان ! » . ولكنها رأت جوليو بنكو يعض شاربيه بناجذيه ، وأن عينيه هو أيضاً مغرورقتان . فقامت وأقبلت عليه ، ووضعت يدها الرزمة على شعره ، وقبّلته فى هينة فوق جبينه ، هامسة من شدة التأثر : « شكرا يا إيفان ! لقد كنت دائما أعتقد أنك وفلاديمير أقرب الى الأخوين الشقيقين منكما الى مجرد صديقين . لا تؤاخذانى . إننى سعيدة أيما سعادة . والحمد لله سبحانه ! »

وفاضت الدموع على خديها . واشتد بإيفان جوليو بتكو اضطرابه وارتباكه ، ولم يسمه إلا أن يأخذ بين راحتيه يدها الباردة المعروقة ويكب عليها تقبيلاً . وكان مختنقا بالعبرات فلم يستطع أن يلفظ حرفا . ولكن هذه الفورة من الحب الأموى أشعرته بالتبكيت الشديد ، حتى لقد آثر أن لو كان هو الصريع على الساحة وقد نفذت الرصاصة فى دماغه ، فذاك أهون عليه من سماع عبارات الحمد له وامتداح صداقته وخالص أخوته تجرى على لسان هذه المرأة وهى بعد هنيهة قصيرة سيتضح لها حقيقة الواقع وجلية الأمر . وماذا ترتأى فيه وقتئذ ؟ ألم يقف — وهو الصديق وفى حكم الشقيق — ساكنا جامداً حين كان المدس مسددا الى فلاديمير ؟ أليس هذا الشقيق نفسه هو الذى قاس المسافة بين الغريمين ، وهو الذى حشا المدسين ؟ كل هذا صنعه بنفسه ، وقد صنعه وهو يعى ما يصنع ؛ وهاك الصديق بل الشقيق يجلس الآن صامتاً ولا يتقدم حتى هنا للقيام بواجبه

إنه جزع خائف . يحتقر فى هذه اللحظة نفسه دون أن يستطيع مغالبتها ليقول ولو كلمة واحدة . وإن إحساساً غريباً بالتناقض يحرج صدره ويزهق روحه ، فهوفى كرب واختناق . والوقت يمر سراعا ؛ إنه يعلم بمروره ، وكلما زاد به علما وهت عزيمته ولم يقو على حرمان بيلاجيا بتروفنا مما بقى لها من لحظات سعيدة أخيرة . فماذا هو قائل لها ؟ وكيف يقدم للخبر ويهيؤها لسماعه ؟ لقد حار إيفان جوليا بتكو فى أمره وأسقط فى يده

لقد انفسح له الوقت هنا ليلعن فى سره جميع المبارزات وجميع المشاحنات وكل ضرب من ضروب البطولة وسائر ما يسمونه مسائل الشرف على اختلاف ألوانها . وأخيراً هب من مجلسه وهو موطن النفس على التصريح أو الفرار . وأقبل ، فتناول — معجلا ومن غير كلام — يد بيلاجيا بتروفنا وانحنى يلثمها ، فأخفى بذلك وجهه عنها ، وإذا سيل من الدمع السخين المدرار ينهمر فوقها . ثم انتزع نفسه وانطلق لا يلوى على شىء ، وتناول عند الباب معطفه الكثيف وخرج من البيت دون أن يقول كلمة

وتطلعت بيلاجيا بتروفنا وراءه مندهشة ، وقالت فى نفسها : « لا شك أنه أيضاً عاشق ، مسكين ، كان الله فى عونه . إيه ! إنها لوعة الصبا تلوعهم — ومن بعدها سعادة »

ثم سرعان ما نسيته ، وغاب أمره عن بالها ، واستغرقت العجوز فى أحلامها بالسعادة تتراءى لها محققة كاملة !

عبد الرحمن صدقى

استدراك

جاء فى (مذكرات نائب فى الأرياف) المنشورة فى هذا العدد أن مدة المعارضة أربعة أيام والصواب ثلاثة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً